

المنفعة المادية

ليست غاية الحياة

للأستاذ رشاد محمد محبوب

يغلط كثير من الناس بين الخير والفضيلة من جهة، وبين اللذة والنفع من جهة أخرى، فليس هناك من ينكر أن في كل عصر وفي كل بيئة نجد أوامر ونواهي مندجة في الدين أو منفصلة عنه، وهي تختلف اختلافاً كلياً عن الوصايا القائمة على ملاحظة المنفعة والضرر الماديين، بل كثيراً ما يطالب من الإنسان أو يطالب الإنسان من نفسه تحمل ضرر مادي أو تضحية مادية في سبيل مثل أعلى أو كمال روحي.

وكثيراً ما تقف الخلقيون والشعراء، بالآلم من خصب وكرامة بل من جاذبية، فقال (الفردى موسى): "أحب جلال الآلام الإنسانية"^(١) ولياليه ملاهى بتمجيد الآلم، وقد نستطيع بسهولة جمع ديوان من قصائد الآلم ثم إن مئات من المشاهدات تدل على أن محبة الآلم ظاهرة نفسية معروفة عند الزهاد والمصوفين والمستشبهين إذا ما بداهم الآلم كوسيلة للاتصال بالله.

فمن الخطأ الفاحش أن تكون غاية الحياة المنفعة المادية فإن في هذا سوء مشاهدة للأمر، إذ من المشاهد أن الإنسان لا يبحث عن المنفعة المادية في كل أفعاله، بل هناك أفعال عديدة يفندى المرء فيها الواجب بكل منفعة مادية أخرى.

وشهادة الضمير تظهر أن النفع يحرك فينا حاسة الإعجاب لا الاستحسان الخلقى، وإلا فلم نستحسن أفعال الأحرار المختارين وحدهم استحساناً خلقياً، ولا نستحسن أفعال غيرهم كذلك، فإن المذبايع والمسرة والآلة البخارية قد نفعت البشر نفعا لا يوصف، ومع ذلك فإنك لا تجد عاقلاً يقدرها كما يقدر المحسنين من البشر ولا يستحسن أفعالها عن استحسانه لأفعال أهل المروء والاستقامة. بل إن ما تعدته فينا الآلات النافعة من الأفعال يختلف عما تعدته فينا الأفعال الخلقية من الأفعال بقدر ما يختلف كل انفعالين غير متناقضين إذ الفرق بين انفعالنا بالرأحة الطيبة وعذالة زيد ليس أعظم من الفرق بين انفعالنا بمنفعة المذبايع وتعدى عمرو. فلو كان النفع علة لكون الأفعال خلقية لوجب أن نفعل بأعمال الآلات النافعة وأعمال البشر الخلقية أفعالاً واحداً، ولكن انفعالنا بها مختلف من بعض الوجوه فالنفع إذن ليس علة للأفعال الخلقية.

وقد يعترض معترض بأن المقصود بالنفع إنما هو النفع المقيّد بأفعال العقلاء لا أفعال غيرهم. وما الذى يضطره إلى تقييد النفع بأفعال العقلاء، إن كان النفع هو علة استقامة الأفعال، والضرر علة عدم استقامتها. فإن النفع والضرر هما في أفعال البشر وأعمال الآلات ولكن تقييد المعترض للنفع بأفعال العقلاء دليل واضح على الفرق الجوهرى بين الأفعال الخلقية والأفعال النافعة.

فشهادة الضمير تعارض هذا الخطب بين الخير واللذة والفضيلة والنفع. فإن الخير والفضيلة معنويان، والمادة والنفع حسيان. وليس بين الخير وبين اللذة تطابق. فليس كل عمل نافع خيراً وفضيلة، وليست كل فضيلة نافعة أولادة. فمن الأفعال ما نسميه بأفعال الخير والنبل والجلود والشهامة والبطولة، وما كنا لنسميها كذلك لو نظرنا إليها بعين المنفعة، ولكننا

نظرتنا إلى الواجب والاحلاص وحب الخير والحقيقة والعدل . ومن الأفعال ما نسميه بأفعال أشر والدناءة والتجيز والخبث والحزى والإجرام ، لالتصاق هذه الصفات بها أولا ، وقيامها على أسباب الدناءة والأشر ثانيا . والفعل الواحد من هذه الأفعال تتضاعف درجاته خلقيا فاننا نكبر الفقير الذى يوجد بالتدليل ، ونضع قليله فوق "الكثير من الغنى الذى يوجد مما زاد عن حاجته . وقد نعجب بمهارة الرجل الذى يتوخى النفع ويتخذ الوسائل المؤدية لغايته ؛ ثم نحتقره من الوجهة الخلقية ، بينما نحن نقدر الخير أيا كانت نتيجة وكثيرا ما يضحى الانسان بنفسه فى سبيل ذويه ، ولا شك أنه إذا أقدم على ذلك فهو لا يتوخى من عمله نفعا ذاتيا . والأم تعطف على ابنها حتى إذا رآته سعيدا سعدت معه وليست غايتها من إسعاده أن تسعد هى بل أن يسعد هو فتكون سعادتها لاحقة لسعادته ونتيجة لها . فحسن أن يضحى بالحياة فى سبيل الوطن أو الدين أو العلم أو أيما غاية كبرى . وهذه التضحية تجلب الثناء وأحيانا تثير الحماسة عند الناس جميعا . وقد قال الشاعر اللاتيني :

”تيقن أن المصيبة الكبرى إنما هى إثارة الذات على الشرف وفقدان أسباب الحياة من أجل الحياة“.

“Summun credi nefos animam Proefevre pudori et propter viton, vivendi Preders couson”.

فلو كانت غاية الحياة المتفعة المادية لما رأينا كل هذه التضحيات التى تفيض بها كتب التاريخ وتضيق عنها صحف الحياة الانسانية فى ماضى العصور وحاضرها . بعد هذه التحليلات الفلسفية السهلة تتفق معى سيدى القارئ العزيز على أن ”المنفعة المادية ليست غاية الحياة“ . وجميل جدا أن يتم هذا الاتفاق بيننا فى عصر تقدمت فيه الآلات والأجهزة وتأخرت النفس والأخلاق .

والآن أترك لك التفكير فى استنتاج ما يمكن استنتاجه من غاية الحياة للانسان الكامل ، ولعلك تصل ان شاء الله إلى ما وصل إليه (أرسطو) من أن ”الخير هو موضوع جميع الآمال“ ، أى أن ”الخير هو المقصود من الكل“ على حد تعبير (ابن مسكويه) .

رشاد محمد محبوب

تم طبع هذه المعلقة فى بيم :

١٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٣

(١١ من مايو سنة ١٩٤٤)

مدير المطبعة الأميرية

محمد كبرى